الكتاب الجديد

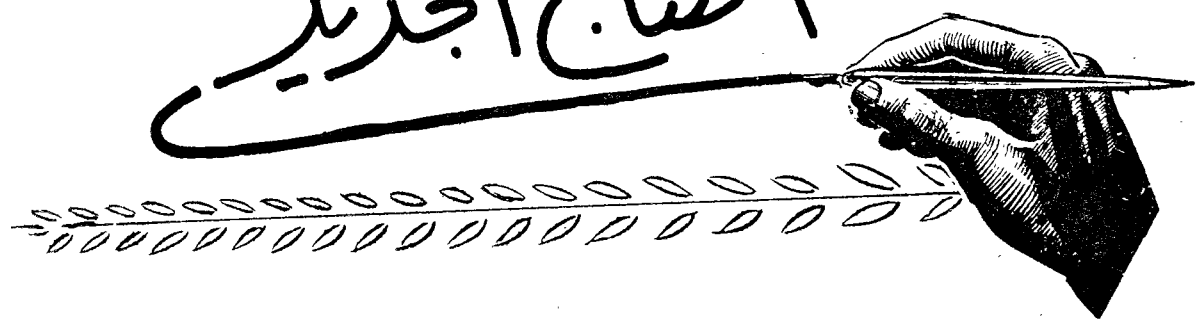

بشير بن السلطان والعزيز

بقلم الدكتور اسد رستم

من منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت

*

هذا اسم كتاب للدكتور اسد رستم ، احد اساتذة التاريخ بالجامعة اللبنانية . وهو من منشورات قسم الدراسات التاريخية بالجامعة نفسها.

انجزت المطبعة الكاثوليكية طبع القسم الاول منه في الثلاثين من كانون الاول سنة ١٩٥٦ ، فطلع على الناس مع طلوع هذا العام . وقد احتوى على ستة فصول وقعت في مائة وثماني صفحات ، يضاف اليها فهرست لفصول الكتاب يقع في صفحة واحدة . ومقدمة موجزة للمؤلف ، تناولت احوال الحكم في لبنان منذ بدء العهد العثماني الى نهاية العهد الشهابي .

عالج الكتاب احوال لبنان وسوريا واحداثهما وتاريخها في فترة امتدت ٣٧ عاما (١٨٠٤ ـ ١٨٤١) ، وعالج احوالا اخرى مصرية وسعودية مما كان له مساس بغزوة محمد علي للقطر الشامي وما والاه من بر الاناضول. وقد طبع طبعا جيدا على ورق جيد ، ونظمت فصوله وبحوثه تنظيما فنيا حسنا ، وعززت باسانيد رقمت ترقيما تصاعديا متسلسلا ، فبلغت ٣١٠ ، اخذت من عدد غير قليل من مراجع ومصادر لبنانية وغير لبنانية . ولا اراني ابالغ حين اقول : ان هذا الكتاب من اكثر المراجع احاطة باحوال لبنان وسوريا في الحقبة التي تناول تأريخها ، ومن اوثق المستندات واغزرها مادة واضفاها ايضاحا لغزوة ابراهيم باشا وما كان لها من اثر في بر الشام عامة .

واني ارى من الحق وانا اشير الى محاسن هذا الكتاب ، ان اشكر لصديقي الدكتور رستم تلطفه باهدائه نسخة منه الي . ويحلو لي بعد ان قرأته ان اضع تحت نظر الدكتور ونظر القراء ملحوظات ومآخذ لمتها من أضعاف هذا الكتاب ، رغبة في خدمة الغاية التي تجرد لها الدكتور، وفي ايضاح الحقائق التي عني بايضاحها عناية كبيرة ، وهذي هي الملاحظات :

١ ـ العاطفة : ظهر في الكتاب عاطفة بشيرية شهابية ، بدأت في اسمه (اذ جعل بشكل تورية كما هو ظاهر) ثم تفشت في صفحاته جميعا. فالامير بشير هو الشهابي الكبير حيثما ورد ذكره في الكتاب . وقد تعدد هذا الوصف حتى بلغ ٦١ مرة . ويلحظ احيانا ان هذا (الكبير) قد اقحم اقحاما في مثل قوله : « الشهابي الكبير امير لبنان » ص ٦٨ و ٧٧ . وقد امتدت العاطفة الى محمد علي فوصف بالكبير ايضا ، واذا ذكر هو والامير بشير فهما « الكبيران » . وعندي ان هذا اقرب الى المجاملة والى المفاخرة والمنافسة منه الى التحقيق والتدقيق التاريخيين . وليت الكتاب كان خاليا منه (١)

ويلحظ ان هذه العاطفة قد طفت في ناحية فجعلت مساويء الامير محاسن وصورت فتكه وبطشه حكمة بالغة ومصلحة لبنانية عامة . من هذا اقدام الامير على تحطيم الرؤس الكبيرة .. (٢)

اجل، لقد حطم الامير رؤوسا كبيرةكثيرة. حطم رؤوساء منأقربائهوذويه آل شهاب.ورؤوسا من آل نكد وآل جنبلاط وسواهم من اصحاب الاقطاع. وحطم عددا من الاسر اللبنانية المحاربة التي كانت تسمى « الجمرات ».. فلاية غاية كان ذلك التحطم يا ترى ؟

اما الدكتور فقد جعله مصلحة لبنانية عامة ، بتوطيد السلطة المركزية ، وربط الشعب اللبناني بشخص حاكمه مباشرة ، فضلا عن مصلحة الامير الخاصة(٢) . اما غيره فقد جعلها استئثارا بالسلطة بنقلها من اصحاب الاقطاع الى ابنائه هو وحفدته ومريديه ، وقد كان هؤلاء يفوقون الاقطاعيين الذين تقدموهم جورا وظلما (٣) وجعلها آخرون لمصلحة محمد علي تمهيدا وتسهيلا لغزوه بر الشام (٤)

٢ ـ اهمال بعض المراجع . يلحظ ان الدكتور اكتفى بمراجع معينة واجتزأ بها عما سواها من مراجع تعنى بتاريخ الحقبة التي تناولها كتابه، مثل كتاب بيريه ، وغيز ، وابراهيم باشا في سوريا ، والحركات في لبنان الخ... وقد كان من الحق الا يغفل مثل هذه المراجع ولاسيما تلك التي تمثل وجهة نظر خاصة في احوال لبنان وتاريخه ، خصوصا قبل غزوة ابراهيم باشا . ان اثبات الحقائق يقتضي اعتماد الروايات جميعها (٥).

٣ ـ فتنة جبل الدروز . لم يكابد ابراهيم باشا صعوبات حربية من بدء غزوته الى انسحابه من سوريا مثل ما كابده من ثورة الدروز في جبل حوران . وقد ورد ذكرها ص ٧٤ بانها « فتنة الدروز » و « فتنة جبل الدروز ». وعندي انها ثورة وليست فتنة . ان الفتنة تعني ـ على الاكثر ـ الاختبار والمحنة والعذاب الخ . وفي القرآن الكريم « الفتنة اشد من القتل » . وقد تعني الفتنة القتل والقتال ، لكن في جماعة ما بين افرادها واحزابها في الداخل ، لا بينها وبين عدو طاريء من الخارج . اما نسبتهاالى جبلالدروز،فلا اراهاتجوز فيتلكالحقبة.ذلك لانجبلالدروزكان

(١) راجع مصطلح التاريخ للدكتور رستم ص ٩٢ و ٢١٠

(٢) بشير بين السلطان والعزيز ص ٧

(٣) ابراهيم باشا في سوريا لسليمان ابي عز الدين ص ٣٢٠ ، نقلا عن مخطوطة مشاقة ص ٢٥٤ و Perrier, P. 311 (٤) الحركات في لبنان ص ٤ ـ ٥ وما بعدها . (٥) راجع مصطلح التاريخ ص ١٣١ .

اسما لجبل لبنان حينذاك (وفي ص ٥٣ ورد ذكر جبال الدروز على اعتبار انها جبال لبنان) . فلو قيل : ثورة جبل حوران او ثورة الدروز في جبل حوران ، لكانت الدلالة اصح في الكلمتين كلتيهما .

٤ ـ البقاع ارض لبنانية : جاء في الكتاب « ان البقاع ارض لبنانية » وملك المشايخ الجنبلاطية . اما كيف صار ذلك السهل ارضا لبنانية ، وكيف تملكه المشايخ الجنبلاطية ، في اي زمن ، والى اي حد ، فلا ذكر له في الكتاب .

ان قرى البقاع شرقي الليطاني وغربيه ، من جسر عنجر الى جسر برغز ، حولها والي الشام الى عهدة الشيخ علي جنبلاط مقابل عمل كبير قام به الشيخ نحو الوالي . وقد ظلت تحت تصرف الشيخ علي متوارثة في اعقابه (٦) حتى وفاة سعيد بك جنبلاط سنة ١٨٦٠ . ولم يشأ الشيخ علي ان يستقل بهذه الغنيمة ، بل اراد ان تشاركه فيها العشائر الدرزية التي جعلت تتوافد عليه للتهنئة بما تم له . فقدم قريتي جبجنين وكامد لآل عماد ، وقريتي عيثه وسوامة جبجنين لآل نكد ، وقرية غزة لآل ابي علوان ، وقرية الاخضر لآل العيد ، وقرية قب الياس لال عطاالله، وقريتي قبر عباس والمنصورة لآل تلحوق . وبقي في حوزته سائر قرى السهل وهي خمس وعشرون . ولهذا تفاصيل يجدها القاريء في كتاب « الحركات في لبنان » ص ٨١ وما بعدها .

٥ ـ جباية المال لشيخي العقل .

جاء في الصفحة ١٢ ان الامير بشيرا ارضى رجال الدين في لبنان ... فجبى لشيخي العقل مالا خاصا قدمه لهما وجمعه من جميع رعاياه الدروز والنصارى على السواء . مستندا في ما ورده الى المحفوظات اللبنانية في المتحف الوطني . انه لم يعين المحفوظة التي تنص على جباية ذلك المال الذي لا عهد للناس بجباية مثله .

اما وقد ذكر مشيخة العقل فقد كان حريا به الا يكتفي بذكرها في آيام محنتها ، حين عبث الامير بها فاضعفها بقسمتها مشيختين بعد ان كانت موحدة في شيخ واحد ، وباخضاعها لافاعيل الحزبية والغرضية ، بعد ان كانت فوق هذه الاعتبارات الزمنية . ليته ذكر الشيخ الذي كان الامير يبالغ في توقيره ويقدمه في قصره على كل رئيس ديني بلبنان ، حتى اذا لقيه في طريقه اتفاقا كان الامير يترجل وينتقدم فيقبل يده .

كان حريا بالدكتور رستم ان يذكر المشيخة ـ على الاقل ـ كما ذكرها هنري غيز (٧) قنصل فرنسا ببيروت في ذلك العهد .

٦ ـ تصويبات مطبعية ولغوية

الصفحة	خطا	صواب
٥	بتدين وعماطور	بعقلين وعماطور
٧	اسرة بني حسن	أسرة بني ابي حسن
٩	الفحيلة والسلوط	الفحيلية والسلوط
١٠	ابو زيد الهلال	ابوزيد الهلالي(نسبة الى بني هلال)
١١و٧	يوقي	يوقى (بالبناء للمجهول)
١٥	اتصلا ببعضهما	اتصل احدهما بالآخر
٢٣	احتشد بعضا من الشبان	حشد بعضا من الشبان .
٢٨	جماح (بضم الحاء)	جماح (بكسر الحاء)
٢٩	ضمر السوء ـ نصح اليه	اضمر السوء ـ نصحه او نصح له.
٣٩	تليا	تلوًا (بفتح الواو)
٤٠	اذا اقتضى الامر لذلك	اذا اقتضى الامر ذلك .
٦١	نزل وجهائها	نزل وجهاؤها .
١٠٢	اجلاء امرين	جلاء امرين
١٠٢	عيثاب وكلس وكورداغ وقعوا	عيثاب وكلس وكورداغ وقعت
١٠٧	يولج ـ لاسيما بتنظيم البريد	يولي ـ لاسيما بتنظيم البريد

(٦) توفي الشيخ علي جنبلاط سنة ١٩٩٢ هـ ١٧٧٨م
Henri Geys. Tome 2 P. 70-71 ; Beyrouth et le Liban

على ان هذه التصويبات والملاحظات القليلة ، ان صحت ، فلا تكسف محاسن الكتاب الكثيرة ، ولا تمنع ان تظل للكتاب قيمته الكبيرة . ولا تعدم الحسناء ذاما .

عارف ابو شقرا

مصادر الشعر الجاهلي

للدكتور ناصر الدين الاسد

يحتل الشعر الجاهلي اسمى مكانة واعلى منزلة لانه نبع الفصاحة ، ولانه يمثل النفسية العربية في صفائها وصدقها وسموها ولانه يوضح حياة العرب الاجتماعية في حقبة غامضة من الزمن .

والشعر الجاهلي نتاج عصر يغلفه ضباب الغموض ، وتتكاثف في افقه سحب الشك ومن اجل هذا ثارت حوله مشكلات اصطدمت فيها الاراء واحتدم الجدل وظل كثير من قضاياه في ابهام دون ان يتصدى لها باحث، او يدرسها عالم حتى قيض الله لهذا الشعر الكاتب العربي البحاثة العالم الدكتور ناصر الدين الاسد ـ الذي تقدم بهذا البحث لجامعة القاهرة ، فنال به درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز ـ فأضاء الجوانب المظلمة ، ونفض الغبار المتراكم على الزوايا المعتمة ، ووصل الى نتائج لم يصل لها باحث قبله .

قدم الكاتب بين يدي بحثه تمهيدا تناول فيه طبيعة شبه جزيرة العرب من حيث الارض والمناخ والسكان وقسم اهلها الى طوائف وتناول نظام القبيلة ووضح علاقة العصر الجاهلي بما قبله وما بعده واورد الآيات القرآنية التي تناولته . وخلص من التمهيد الى تقسيم بحثه الى خمسة ابواب يضم كل منها عدة فصول تحدث في الاول عن الكتابة في العصر الجاهلي وفي الثاني عن كتابة الشعر الجاهلي وتدوينه وفي الثالث عن الرواية والاستماع وفي الرابع عن الشك في الشعر الجاهلي وفي الخامس عن دواوين الشعر الجاهلي . وختم بحثه بثبت للمصادر والمراجع التي استقى منها مادته واربعة فهارس للاعلام والاماكن والكتب والشعر . ومن العسير علي في هذه الكلمة ان الخص ابواب الرسالة ، واسجل اراء الكاتب حول كل مشكلة ولكني اختار ناحيتين وهما الكتابة في العصر الجاهلي ، وتدوين الشعر الجاهلي ، واترك قضية الشك في الشعر الجاهلي ليطلع عليها كل من في نفسه ريبة في هذا الشعر ، ويلمس جهد الكاتب في هذه المسألة بالذات والادلة التي اوردها ، والاسانيد التي قدمها ، والكتب التي لخصها . لقد كان السائد عند دارسي الادب الجاهلي ان العصر عصر امية وجهالة ليس بين اهله من يحسن القراءة ، او يعرف الكتابة ، ولكن الكاتب اثبت بما لايدع مجالا للشك ان العرب كانوا يكتبون في جاهليتهم بالخط الذي عرفه المسلمون قبل بزوغ الاسلام بثلاثة قرون وان كان من الطبيعي الا يفهم من هذا انهم جميعا كانوا يكتبون اذ يوجد في عصرنا الذي نعيش فيه من لا يكتب . ومن الادلة على

معرفتهم بالكتابة النقوش التي اكتشفت بالخط العربي فى القرن الثالث والرابع والخامس للميلاد . وقد صور الكاتب هذه النقوش ، وفصل الكلمات العربية التي تضمنتها . ومنها الرسائل التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط فى مصر والى المنذر بن ساوى والى النجاشي فى الحبشة واثبت أيضا ان العرب فى العصر الجاهلي كانوا يعرفون النقط والشكل والاعجام . وساق الكاتب الادلة المتتابعة على شيوع الكتابة فى الجاهلية ووجود عدد من المسلمين. ومن ذلك ما ذكره البلاذري نقلا عن الواقدي انه « كان الكتاب فى الاوس والخزرج قليلا ، وكان بعض اليهود قد علم كتابة العربية وكان يعلم الصبيان بالمدينة فى الزمن الاول فجاء الاسلام وفى الاوس والخزرج عدة يكتبون » . وذكر الطبري انه « حين نزل خالد بن الوليد الانبار رآهم يكتبون العربية ويتعلمونها » . ومنها ما اورده المسعودي من ذكر اسماء الذين كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقسيمهم الى فئات ، فئة تكتب ما يعرض من اموره وحوائجه وثانية تكتب العقود والمعاملات وثالثة تكتب اموال الصدقات .

ولم يكتف بعض العرب بمعرفة الكتابة العربية وحدها بل دفعته دوافع معيشية وفكرية الى تعلم الكتابة فى لغات اخرى غير العربية .

واوضح مثال على ذلك الشاعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي الذي تعلم الخط العربي ثم الفارسي فصار افصح الناس واكتبهم بالعربية والفارسية ثم انتقل الى بلاد فارس فأصبح كاتبا بالعربية ومترجما فى ديوان كسرى وكذلك الشاعر لقيط بن يعمر الايادي الذي كان كاتبا بالعربية ويحسن الفارسية ومن اجل ذلك كان مترجما فى ديوان كسرى.

اما الامية التي وصف بها القرآن الكريم العرب فى جاهليتهم فى قوله تعالى « وقل للذين اوتو الكتاب والاميين أأسلمتم » وقوله « هو الذي بعث فى الاميين رسولا منهم » فهي الامية الدينية لا الكتابية ولا العلم. بمعنى انه لم يكن لهم قبل القرآن الكريم كتاب ديني ، وليسوا كأهل الكتاب والنصارى الذين كان لهم التوراة والانجيل . ومن الادلة التي ساقها الكاتب لتأييد رأيه ان القرآن الكريم قد وصف فريقا من اهل الكتاب بالامية فى قوله « ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا اماني وان هم الا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون » . ومعرفة العرب بالكتابة تصل بنا الى تدوين الشعر الجاهلي .

وكتابة الشعر الجاهلي ذات ناحيتين . الاولى الناحية الضيقة التي لا تعدو مجرد التقييد والثانية الناحية الواسعة التي تعنى التدوين . وقد اورد الكاتب على الناحية الاولى طائفتين من الادلة احداهما عقلية ، والاخرى صريحة فى نصوص مباشرة ومن الاولى .

١ ــ ثبت ان القبائل فى العصر الجاهلي كانت تقيد عهودها ومواثيقها فمن الطبيعي ان تقيد شعر شعرائها . ونحن نعلم منزلة الشاعر فى العصر الجاهلي .

٢ ــ اذا كان الشعر الذي يسجل مفاخر قبيلة له قيمته عند الممدوحين فان له اعظم مكانة عند الشاعر نفسه الذي لا يتكسب بمدحه .

٣ ــ ليس من المعقول ان تظل القصيدة عند الشاعر حولا كاملا يجيل فيها نظرة وفكرة ويحور مع الفاظها دون ان تكون مقيدة امامه .

٤ ــ الشعر الجاهلي حافل بذكر الكتابة وصورها .

اما الطائفة الاخرى من الادلة فنكتفي بايراد واحد منها . فقد ورد ان النعمان بن المنذر ولى بعض الاعراب باب الحيرة مما يلي البرية فصاد الاعرابي ضبا فبعث به الى النعمان وكتب اليه :

جبى المال عمال الخراج وجبوتي
مقطعة الآذان صفر الشواكل
رعين الربا والبقل حتى كأنما
كساهن سلطان ثياب المراجل

اما تدوين الشعر الجاهلي فقد ربط الكاتب بينه وبين التدوين العام للعلوم باعتباره جزءا من كل فبدأ بتدوين الحديث والفقه واتبعهما بتدوين التفسير ثم وصل الى تدوين المغازي والسيرة . ففي كتاب المغازي كان الكتاب يعرضون لذكر العرب الجاهليين ويفصلون القول فى نسب الرسول الكريم واخبار مكة وقريش كما تشتمل هذه الكتب على كثير من الشعر الذي قاله الشعراء الجاهليون والمخضرمون وكذلك اعتمد المفسرون على الشعر الجاهلي وكلام لعرب فى تفسير الفاظ القرآن وفهم معانيه . وقد ذكر الكاتب عالمين من علماء الشعر الجاهلي وهما ابو عمرو بن العلاء المتوفي سنة ١٥٤ هـ وحماد الراوية المتوفي سنة ١٥٦ هـ. وقد انتهى الكاتب الى ان الشعر الجاهلي كان مدونا فى القرن الاول الهجري ، وان العلماء لرواة فى القرن الثاني قد وصلهم بعض هذه المدونات لان رواية الشعر الجاهلي قد تصلت من الجاهلية الى عصر التدوين العلمي فى القرن الثاني الهجري .

وعلى هذا النسق من تفصيل المسائل ، وتوضيح الجوانب ، وايراد الادلة ، وعرض الآراء ، ومناقشتها وترجيح رأي على آخر وذكر المقدمات وترتيب النتائج ، يمضي الكاتب فى كل الابواب عارضا تلك الحقائق العلمية فى اطار من الاسلوب المشرق والبيان الرصين الذي ينم عن ذوق اصيل ، وثقافة واسعة .

واول ما يقتضيني الانصاف ان اذكره تقدير الجهد المضني الذي بذله الكاتب وهو يغوص فى اعماق المراجع وبطون الكتب يستخرج منها ما يؤيد رأيه ، ويدعم حجته وقد اربت مصادر البحث ومراجعه على ١٢٠ بين مطبوع ومخطوط .

اما الامر الثاني فهو ان العمل الذي قام به الباحث اكبر من ان يقوم به شخص لصعوبة مسالكه ، ووعورة طرقه ، وعجيب ان تكون لدى الكاتب تلك القدرة على الصبر والجلد طيلة اربعة اعوام .

الامر الثالث . ان الكاتب قد صل الى نتائج علمية عبدت الطريق امام الكثير من الدارسين ومع ان هذه النتائج قد وصل اليها الكاتب عن طريق البحث والاستقصاء فهي اشبه بالاكتشافات .

الامر الرابع : ان الكاتب التزم منهجا علميا قويما جعله يدمغ الرأي بالرأي ، ويستقرىء الادلة ، ويتتبع النصوص ويرد على كاتب من كلمانه كما حدث وهو يناقش آراء ابن سلام .

الامر الخامس : ان الكاتب قد اضاء كل الجوانب المظلمة فى افق العصر الجاهلي ، ووضح كل النواحي الغامضة التي تكتنف الشعر الجاهلي . ولا يسع الناقد المخلص الا ان يقدر للكاتب عمله الجبار فى خدمة تراثنا العربي القديم الذي نعتز به ونباهى بروعته .

القاهرة — **كامل السوافيري**